عود الى المعقول
رأي فلسفي

احمد فؤاد الاهواني

الفلسفة مزاج شخصي ، ولذلك اختلفت عن العلم اختلافا جوهريا ، على الرغم من ان العلم نشأ في احضانها . ولكن العلم كلما نحا نحو الموضوعية والاستقلال عن النزعة الشخصية ، انفصل عن شجرة الفلسفة وهجرها . ولما كانت العلوم المختلفة ابتداء من علم الفلك الى علم الاجتماع وعلم النفس قد اعلنت استقلالها ، فماذا بقي لعمري للفلسفة ؟

بقي لها انها « نظرة شاملة الى العالم » كما يقول فلاسفة الالمان ، وهذه مهمة لا يمكن ان ينهض بالقيام بها علم من العلوم .

ومن خلال هذه النافذة الفلسفية التي انظر منها الى العالم ، استطيع ان ارى عجائب العالم والانسان من شتى النواحي . وقد يحلو لبعض الناس ان يرى الاشياء من هذا المنظار بطريقة مألوفة مستقيمة ، وهي الطريقة التي نقول عنها انها « معقولة » ، كما يحلو لبعضهم الآخر ان « يتشقلب » فيقف على يديه ويرفع قدميه الى اعلى كما يفعل البهلوانات فيرى الاشياء « مقلوبة » ، وهي البدعة الجديدة التي تسمى « اللامعقول » . وهي بدعة ليست جديدة ، فقديما قيل : خالف تعرف .

ولا احب ان احجر على حرية اصحاب اللامعقول ، ولا يليق بمن يصطنع طريق الفلسفة ويتخذها له صناعة ان يحجر على حرية اي انسان ، لان الفلسفة في اساسها هي حرية الفكر . ولذلك اترك للسائرين في ركاب اللامعقول ان يمضوا في طريقهم ، وانا على يقين انهم سيعودون باسرع مما يتوقعون الى احضان المعقول .

وبعد ، اليست الفلسفة مزاجا شخصيا ؟

واللامعقول هو مزاج بعض المفكرين ، بعض الوقت . انه مزاج العصر في بعض بلاد الغرب ، وانه لمزاج منحرف لاسباب نفسانية ليس الآن مجال بيانها .

ولكننا في الشرق نعتمد في مزاجنا على تراثنا وعلى ماضينا . ولا يمكن ان ينفصل كيان الشخص العربي عن تراثه وماضيه ، حتى لو تعمد ذلك واعلن انه سيصطنع اساليب الغرب وعاداته وتقاليده ، فان روح الشرق تسري في عروقه على غير وعي منه ، في اللغة التي يتحدث بها ، والدين الذي يؤمن به ، والفن الذي يعجب به ، والمثل العليا التي يدين بها .

وقد ورثت مزاجي الفلسفي من الجو العربي الذي نشأت فيه . ورثت نفحة الشرق ، والاستمرار على التراث العربي والاعتزاز به ، وورثت بوجه خاص النزعة العقلية ، هذه النزعة التي يتميز بها العرب قبل الاسلام وبعده . وقد اعجب بهذه النزعة كثير من كبار المفكرين في الماضي، تجد ذلك في كتب الجاحظ مثلا،وبوجه خاص في « البيان والتبيين ». وكان عبد الله بن المقفع فارسيا ومع ذلك فقد اعلى من شأن العرب على الفرس ، معتمدا في ذلك على النزعة العقلية السائدة في العرب ، الذين — كما يقول — « حكموا على غير مثال مثّل لها ، ولا آثار اثرت . اصحاب ابل وغنم ، وسكان شعر وادم ، يجود احدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيكون حجة ، ويحسّن ما شاء فيحسن، ويقبح ما شاء فيقبح » .

ان تراثنا الفكري يبدأ منذ الجاهلية ممثلا في الشعر الذي حفظه لنا التاريخ . ولكن البداية الحقة للفكر العربي هي ظهور الاسلام ، مع نزول القرآن ، بحيث اضحى القرآن ديوان العرب في اللغة والادب والاخلاق والدين والفلسفة الى اليوم .

والقرآن على الرغم من انه كتاب سماوي ، وشريعة ربانية تبين للناس الدين الصحيح والطريق المستقيم ، الا انه يعول على العقل ويمجده في اكثر من آية من الكتاب ، حيث يقول الله تعالى ان في ذلك لآيات لقوم يعقلون ، او يتفكرون ، او يتدبرون ، كما يحث على النظر والاعتبار ، والتأمل والاستبصار . فالاسلام، ممثلا في القرآن، دين « معقول »وهذا هو السر في انتشاره ، وفي استمراره . ولو انه كان دينا « لا معقولا » ما استطاع ان يقف على قدميه في معارك الفكر .

والمعقولية التي ينادي بها القرآن تتمثل في امرين ، الاول الحث على النظر العقلي لمعرفة اسرار الكائنات وعجائب المخلوقات ، لكي نهتدي من ذلك الى معرفة الخالق . والثاني الاحتكام الى العقل للتمييز بين الخطأ والصواب ، ومعرفة الحق من الباطل . فالعقل اذاً هو القسطاس المستقيم ، او معيار العلم ، كما يقول الغزالي .

وقد اخذ العرب بعد الاسلام بهذه المبادىء العقلية ، وساروا على نهجها في الصدر الاول حتى القرن الرابع من الهجرة ، اي حول اربعة قرون من الزمان . سادت النزعة العقلية في المباحث الدينية ، فكان المعتزلة هم اصحاب العقل في الاسلام ، قدموا العقل على السمع . كما سادت هذه النزعة في المباحث العلمية فتقدم العرب بالعلوم المختلفة من رياضيات وطبيعيات اشواطا بعيدة الى الامام . وما العقل الا رد المسببات الى اسبابها ، بحيث يكون لكل ظاهرة طبيعية سبب . اما القول بوجود خوارق للطبيعة ، فانه شيء ينكره العقل ، وهذه الخوارق ان صدقنا بها لا جرم تكون من قبيل اللامعقول .

وقد لقي المدافعون عن العقل في تاريخ الفكر العربي صراعا مريرا من القائلين باللامعقول،

يتمثل ذلك في الحوار الطريف العميق والدقيق بين ابي حامد الغزالي في « التهافت » وبين ابى الوليد بن رشد في « تهافت التهافت » . ومن ابرز المشكلات التي تعرض لها هذان المفكران قضية السببية ، ينكرها ابو حامد ، ويؤيدها ويثبت اقدامها ابو الوليد .

واخذت اوربا في العصر الوسيط بالنزعة العقليـــة التي نقلت اليهم عن ابن رشد ، فتقدمت اوربا ونهضت ، وسارت في طريق العلم الذي نشهد ثماره في العصر الحاضر . وانتصرت تعاليم الغزالي في الشرق العربي فابتعدوا عن النزعة العقلية ، وساروا في طريق « لا معقول » لا يستقيم مع الحياة ، ولا يصلح لهـــا ، ولم يحث عليه الدين . وقد عادت النغمة العقلية الى الظهور ، واخذ المفكرون منذ اواخر القرن الماضي يعزفون على اوتارها الحانا تعيد الى الاذهـــان ما كان يسود العرب في صدر الاسلام . ولا تزال هذه الحركة مستمرة حتى الآن .

ليس معنى ذلك ان العصور التي سادت فيها النزعة العقليـة لم يظهر فيها قوم ينادون باللامعقولية ، ويتصفون في سلوكهم بهذه الصفة ؛ او ان الازمنة التي تميزت باللامعقولية لم ترتفع فيها اصوات العقل. لان الطبيعة البشرية ليست على سواء ، وفيها افراد يتطرفون في آرائهم الى اقصى اليمين ، وآخرون الى اقصى اليسار . وهؤلاء شواذ عن جملة الناس .

والناس بما هم ناس يتميزون بالعقل ، وعلى هذا تعارف الفلاسفة والمناطقة حتى قالوا في تعريف الانسان انه حيوان عاقل ، ولم يقولوا انه حيوان لا معقول .

وليس الانحراف عن الطبيعة البشرية موجودا في الشواذ من الافراد ، وانما قد يسود هذا الانحراف الجماعة نفسها ، بحيث تصبح اللامعقولية بدعـة العصر . ولذلك اسباب في الاغلب اجتماعية وحضارية .

ان سيادة النزعة اللامعقولة — اي المنحرفة — انمـا تنشأ عن اسباب . والقول بوجود « اسباب » للسلوك اللامعقول ، يدل على تحكيم العقل ، والرجوع اليه في قضية اللامعقول ، وعلة ذلك ان العقل يعتمد على مبادىء وعلى ارتباط ضروري بين المقدمـــات والنتائج . وهذه المبادىء ، وهذه العلاقات الضرورية ، مما يسلم به جميع الناس ، او بمـــا يسلم به الانسان من حيث هو انسان . اما اللامعقول فلا يعتمد على قواعد او اسس ثابتة ، بل هو ثورة على القواعد المعروفة والنظم المألوفة .

ويمكن القول بوجه عام ان اللامعقوليةمن النزعات التي تظهر مقابلة للعقلية ثمرة الصراع الطبيعي بين التقليد والتجديد . فاصحاب المحافظة على القديم يأخذون بالتقليد ويجمدون عند الاوضاع المعروفة التي اصبحت مألوفة ، والتي كلما طال بهـــا الزمن بلغت مرتبة القداسة وخيل الى الناس انها من طبيعـــة الاشياء . اما الثائرون على القديم ، وهم في

الاغلب من الشباب ، فـــانهم يميلون الى التجديد ، ويبتدعون نظما جديـدة واشكالا مستحدثة والوانا من السلوك عجيبة غريبة ، ومن هنا يصف الجيل القديم هذا النفر بان انظمته وافعاله وسلوكه من قبيل اللامعقول .

انها وجهة نظر ، وكل فريق منهما يعتقد انه على صواب . فما المعيـار الذي نقيس به الخطأ والصواب ؟

لقد برزت قضية اللامعقول في الايام الاخيرة مع ظهور جماعة « الخنافس » في انكلترا ، واختلاف الناس هناك في امرهم ، بين محبذ لمظهرهم وزيهم ، ومحرم لهذه المظاهر والازياء . وهل يليق برجال ان يطيلوا شعر رؤوسهم كما تفعل النساء ؟ بل ان نســاء اليوم اصبحن يقصرن شعر الرأس الذي كان يعد زينة لهن ، كما يفعل الرجــال . فاللامعقولية انما نشأت من تشبه الرجال بالنساء ، وتشبه النساء بالرجال . وليست هذه البدعة الخنافسية جديدة ، فقد سبقهم العرب الى ذلك في الدولة العباسية ، وفي العصر الذهبي للحضارة الاسلامية ، اذ كانت الجواري يتشبهن بالرجــال ، ويلبسن ملابسهم ، ولذلك سمين « بالغلاميات » . وما الوجودية في باريس والتي انتشرت عقب الحرب الاخيرة سوى مظهر لامعقول ، يعد رد فعل على القلق النفسي الذي ساد العالم بعد الحرب .

ليس مقصودنا بالذات ان ننظر في المظهر الخارجي لالوان السلوك اللامعقولة ، وانمـا غرضنا بالذات الحديث عن الفكر المعقول واللامعقول ، وان نصف الافكار اللامعقولة ، وان نردّ هذه الافكار الى حظيرة المعقول . ولو اننا سنتحدث عن الافكار ، الا ان المذهب الذي ندين به ونعتقده هو ان الفكر الخــالص لا ينفصل عن العمل والسلوك ، لا كما كان يذهب القدماء من انفصال النظر عن العمل ، والفكر عن السلوك .

وقد شاع منذ الاربعينات في هذا القرن ان الفلسفة الوجودية فلسفة لا معقولة ، بل هي عنوان على اللامعقولية . ولكن كبــار الفلاسفة الوجوديين يذهبون الى غير ذلك . فهذا مارتن هيدغر زعيم الوجودية يقول في مقالة مشهورة له بعنوان « ما الفلسفة » ان المرجع في تحديد ماهية الفلسفة هو العقل ، وانها هي الموقف المعقول ، بل اننا اذا شككنا في المواقف المعقولة ، وقلنا انها تنتمي الى مجال اللامعقول ، فلا نزاع ان هذا التحديد يعتمد على المعقول ويتخذ منه معيارا للحكم على اللامعقول .

الحق لقد وضع هيدغر النقط فوق الحروف ، وبيّن ان الطريق الى الفلسفــة ، والى الفكر ، والى العمل ، لا يمكن ان يكون الا في موكب العقل ، حتى لو كان ما يسير فيه المرء هو اللامعقول .

ومع ذلك فان الوجودية على طرافتها فلسفيا ، تعد في مجال الفلسفة من قبيل اللامعقول ، او على الاقل في كثير من جوانبهــا . فقد احدثت الوجودية انقلابا في التفكير الفلسفي

المأثور منذ عشرين قرنا من الزمان ، اذ كان الفلاسفة منذ عهد اليونانيين يقدمون «الماهية» على « الوجود » ، حتى جاءت الوجودية فقدمت « الوجود » على « الماهية » . وهذا ان صح على الانسان الحر الذي يتخذ مواقفه وقراراته بنفسه ، بحيث يحدد ماهيته على النحو الذي يرتضيه ، فكيف لعمري يمكن ان يصح ذلك في عالم الجماد مثلا ، فيحدد « الحجر » ماهيته ؟ وهل الحجر حر حتى يصوغ هذه الماهية ؟ اما ان الانسان حر ، فانها قضية تحتاج الى بحث ونظر ، وقد اختلف في امرها المفكرون ، ولم يستطع فيلسوف كبير ، وهو كانت ، ان يحلها فقال ان « الحرية » مسلمة ، يعتمد العقل العملي على التسليم بها لحاجة الانسان الى اقامة الاخلاق .

تكلمنا عن المعقول وعن اللامعقول كلمة سريعة ، ولكننا لم نبحث في العقل ما هو ، والعقل هو الاساس الذي تعتمد عليه المعاني، معقولة كانت ام لا معقولة . وقد اختلف المفكرون والفلاسفة من قديم الزمان حتى اليوم في امر العقل ، ويهمنا ان نذكر رأي فلاسفة العرب في هذا الموضوع ، باعتبار ان رأيهم يعد جزءاً من تراثنا . وسنكتفي بالاشارة الى رأي الفارابي الذي كتب « رسالة في العقل » ، لخص فيها على الرغم من صغر حجمها الآراء المختلفة التي كانت سائدة في زمانه عن العقل ، وقد حصرها في ستة : اولا ، الشيء الذي به يقول الجمهور في الانسان انه عاقل ؛ ثانيا ، العقل الذي يردده المتكلمون على السنتهم فيقولون : هذا مما يوجبه العقل او ينفيه العقل ؛ ثالثا ، العقل الذي يذكره ارسطو في كتاب « البرهان » ؛ رابعا ، العقل الذي يذكره في المقالة السادسة من كتاب «الاخلاق» ؛ خامسا ، العقل الذي يذكره في كتاب « النفس » ؛ سادسا ، العقل الذي يذكره في كتاب « ما بعد الطبيعة » .

ولا يعنينا من هذه الدلالات الست للعقل سوى الاولى والثانية ، اما الاربع الباقية فانها مأخوذة عن ارسطو باعتبارات شتى من كتبه المختلفة . وليس غرضنا في الوقت الحاضر الخوض في تاريخ الفلسفة اليونانية وانتقالها الى العرب، وانما الذي يهمنا في المحل الاول الكشف عن تراثنا الاصيل الذي يشكل اساس فلسفتنا في الوقت الحاضر .

العقل الذي يقول به الجمهور حين يعنون ان الانسان عاقل ، يريدون به التعقل . ولا يكفي في التعقل مجرد الادراك، بل يشترط في العاقل امرين : ان يكون ذا دين وفضيلة . بعبارة اخرى : « العاقل من كان فاضلا ، جيد الروية في استنباط ما ينبغي ان يؤثر من خير او يتجنب من شر » . فهذا العقل يرتبط ارتباطا وثيقا كما رأينا بالاخلاق ، اي بالخير والشر ، كما يرتبط ارتباطا وثيقا بالدين .

اما العقل الذي يقول به المتكلمون ، « فانما يعنون به المشهور في بادىء الرأي

للجميع ، فان بادىء الرأي المشترك عند الجميع او الاكثر يسمونه العقل » . ولو شئنا ترجمة هذه الفكرة التي يذكرها الفارابي بلغة الفلسفة الحديثة ، لقلنا ان بادىء الرأي المشترك ، هو « العقل السليم » الذي ذكره ديكارت في اول كتابه عن « المنهج » حين قال : « ان العقل السليم اكثر الاشياء توزعا بين الناس بالتساوي » .

هذان المعنيان اللذان بدأ بهما الفارابي كتابه هما في الواقع من جملة التراث العربي ، شاعا عند العرب في الجاهلية ، واشار اليهما القرآن . ذلك ان الدين الجديد لم يعتمد في بيان صحته الا على العقل . وقد اشرنا الى هذا المعنى في صدر هذا المقال ، ولكن الجديد عند الفارابي انه لم يجعل العقل المرجع في الحكم على الاشياء بالصواب او الخطأ ، ولكنه جعل العقل جزءا لا يتجزأ من الاعمال الخلقية والدينية ، او بعبارة اخرى جعل العقل « معيارا » لهذه الامور . وفي الوقت نفسه ذهب الى ان العقل خاصة جوهرية للانسان لا يخلو فرد من الافراد من نصيب منه .

كان ذلك هو تراثنا ، وما زال يتردد صداه في داخل اذهاننا وينعكس على اعمالنا حتى اليوم . فالمعقول بهذا الاعتبار ما كان متفقا مع قواعد الاخلاق واوامر الدين ، واللامعقول ما خرج على هذه الاوامر والقواعد .

وقد شرع الغرب يأخذ بهذا الاتجاه العربي القديم . فهذا فيلسوف فرنسي معاصر ، معروف في مصر ، مشهور في الشرق ، هو المرحوم الاستاذ اندريه لالاند صاحب المعجم الفلسفي المشهور ، والذي كان استاذا للفلسفة بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٦ وسنوات اخرى بعدها ، وتخرج على يديه كثير من زملائنا العرب الذين نقرأ لهم ، ومنهم كاتب هذا المقال. اقول ان آخر ما كتبه لالاند كتاب بعنوان « العقل والمعيار » ، دافع فيه عن العقل وعن المذهب العقلي دفاعا حارا مجيدا . وليس من الغريب ان يفعل لالاند مثل ذلك ، لان الفلسفة الفرنسية عقلية — او عقلانية — اساسا ، منذ ان ارسى ديكارت قواعد هذا المذهب مستلهما فيه الروح الفرنسية . وانت اذا استعرضت الفلسفات الكبرى في العالم ، والتي تعبر عن روح شعوبها ، لرأيت المثالية في المانيا ، والتجريبية في انكلترا ، والبرغماتية في امريكا ، واخيرا الماركسية في روسيا . ولكن العجيب حقا ان فرنسا التي كانت مهد المذهب العقلي هي التي نبعت منها ونبغت فيها النزعات اللامعقولة ، اللهم الا في حالات نادرة تبرز بين حين وآخر في دول اخرى ، كما حدث في « تقليعة » الحنافس بانكلترا .

يقول استاذنا لالاند في استهلال كتابه : « ان معنى العقل الذي نقصده هو ذلك الذي يشبهه ديكارت بالفطرة السليمة ، ذلك الذي نشير اليه عندما نقول عن شخص انه عاقل ، ذلك الذي نعارض به الهوى . وان الايمان بالعقل على هذا المعنى انما هو التسليم بان كل انسان سويّ عنده قدرة اساسية يميز بها القضايا الصحيحة من الباطلة ، ويحكم على درجات

الاحتمال ويرجح بينهـا ، ويميز بين الحسن والقبيح في مجال السلوك او العمل ... فان يعمل المرء بشكل معقول لا ينبغي ان تكون دوافعـــه مجرد بواعث او عواطف بل لا بد ان يفسر هذه الاعمال لغيره من الناس بالرجوع الى الافكار والقواعد التي يسلمون بصحتها . فالعقل اذاً عامل جوهري في تكوين الشخصية الخلقية » .

واحسب انك حين تقرأ هذه العبارات لن تشك في انها تصور المعاني العربية للعقل ، مما ذكرناه من قبل . وسأكتفي بهذا القدر من هذا الكتاب ، لان غرضنا ليس تلخيصه ، بل بيان الاتجاه الحديث في الفكر الاوربي نحو القيم والمعـايير ، وهو اتجاه سبق العرب في تراثهم القديم اليه .

هناك اذاً اطراف ثلاثة لا بد ان تؤخذ في الاعتبار عند النظر في قضية اللامعقول . وهذه الاطراف هي العقل والعاقل والمعقول . وقد اشرنا الى بعض معـــاني العقل قديما وحديثا ، وسنعود الى تفصيل معانٍ اخرى بعد قليل . ويجدر بنا ان نشير اشارة يسيرة الى الطرف الثاني — او الاول — وهو العاقل .

والعاقل صفة تطلق على الانسان ، ولا تطلق على غيره من الكائنات . والانسان نوع من جنس الحيوان ، ولكنه اعلى هذه الانواع ، ولذلك استطـــاع ان يمتاز عنها ويتفوق عليها . وقد قيل ان الانسان مركب من طبيعتين ، احداهما الطبيعة الحيوانية التي يسمى من اجلها حيوانا ، من جهة انه يأكل ويشرب ويتناسل ويتحـــارب مع غيره كما تتقاتل الحيوانات على الظفر بالانثى او الفريســـة . والاخرى الطبيعة العاقلة التي بها يسمو على نفسه ، ويهذب حيوانيته بل يعارضها ، ويحيا حيـاة معرفة ونظر وتأمل . واذا كان من السهل على المرء ان يساير طبيعته الحيوانيـة ، ويستمع لنداء الغرائز ، ويفعل كما تفعل الحيوانات ، فمن العسير ان يتبع طريق العقل ، ويستمع لصوت الحكمة ، ليكون عاقلا بمعنى الكلمـــة .

ان السر في سهولة اتباع الطبيعة الحيوانية ، وصعوبة تحقيق الطبيعة العاقلة ، يرجع الى ان الاولى لا تحتاج الى شيء آخر سوى « الدوافع » الحيوانية التي « تحرك » المرء ، مما يسمى بالغريزة او الهوى او الشهوة ، او غير ذلك من الاسماء . اما العقل فـان جوهره ليس التحريك ، بل النظر ، والحكم ، والترجيح ؛ الحكم بالخطـأ او الصواب ، بالحسن او القبح ، بالخير او الشر . فاذا وقع حكم جازم بان هذا الشيء خطأ تحركت الارادة لتجنب هذا الشيء . فالارادة هي التي تنفذ احكام العقل .

صفوة القول : العاقل هو الذي يتحكم في افعاله ، ويستطيـع ان يخضعهـا لمصلحته او لمصلحة المجتمع ، وان يحقق بها اغراضنا ، بحيث يكون واعيا بهذه الاغراض . لا شك

ان الحيوان ، او غير العاقل – كالطفل او المجنون – يسعى الى غرض ، ولكن في حالة الحيوان لا يكون واعيا بالغرض ، ينصبه امام عينيه ، ويتجه اليه ، ويتخذ له الاسباب المؤدية الى تحقيق هذا الغرض . اما العاقل ، فان الوعي ضروري للتمييز بينه وبين غير العاقل . لا يكون الانسان عاقلا الا اذا كان واعيا ، او شاعرا بذاته وبافعاله .

ولا يسمى المرء عاقلا لمجرد شعوره بالغرض الذي يسعى اليه ، واتخاذ السبل المؤدية الى تحقيقه ، مع شعوره بحرية سلوك هذا الطريق دون ذاك . كلا ، بل ينبغي ان يحقق لنفسه نفعا ، وللمجتمع الذي يعيش فيه مصلحة . وكيف لعمري يمكن ان يسمى عاقلا من سعى الى هلاك نفسه او ايقاع الضرر ببني جنسه ؟ هذا شيء غير معقول ؛ انه « اللامعقول » بعينه .

وقد كان العرب اصح منا نظرا واصدق تعبيرا حين اطلقوا على الشخص الذى يسعى الى الشر او الضرر اسم « الداهية » ولم يقولوا انه عاقل . وعلة ذلك انهم احتفظوا كما رأينا باسم العاقل على من يسعى الى الخير فقط .

خذ مثالا لذلك الذين يطلبون المال من غير الطريق الشريف ، بالسرقة او الفسق او الاحتيال وما اشبه . لا شك انهم قد ينجحون في تحقيق اغراضهم ، وقد يظفرون بكثير من المال ، ولكنه طريق حرام او مرذول ، وعواقبه غير مأمونة ، واذا انكشف امرهم كان مصيرهم الى السجن عقوبة لهم ، أو ان لم ينكشف امرهم كانوا سببا في انهيار المجتمع الذي يعيشون فيه .

فالعاقل هو الذي يفعل الشيء المعقول. ولا يسمى العاقل كذلك بالاطلاق، بل بالنسبة الى ما يقوم به من اعمال وما يصدر عنه من سلوك .

والعاقل اسم يطلق ويراد به معنيان : الاول العاقل « بالقوة » ، والثاني العاقل « بالفعل » . فالانسان من جهة انه انسان ، وكل انسان ، بل الطفل نفسه ، يسمى عاقلا « بالقوة » ، اي عنده الاستعداد ان يكون عاقلا . ولكنه لا يكون عاقلا بالفعل الا عندما يوضع في محك العمل ليتبين من تصرفاته اهو عاقل ام لا . وهذا شيء مقرر قانونا ، اذ من المعروف ان الشخص اذا اساء التصرف في امواله بما ينتج عنه ضرر ، كان لاهله ان يتقدموا للقضاء يطلبون « الحجر » عليه ، بما يمنعه من حرية التصرف ، لانه غير عاقل . والحكم على الشخص بانه عاقل او غير عاقل انما يرجع الى النظر في سلوكه وتصرفاته ، امعقولة هي ام لا معقولة ، اي اهي متفقة مع العقل ام غير متفقة .

فهذا ما كان من امر العاقل وتحديد معناه . ولنمض الآن في تحديد معنى العقل ،وما الذي نقصده بذلك .

ومن قديم الزمان ، منذ ظهور الفلسفة على مسرح الفكر ، كان البحث في العقل شغلها الشاغل ، ولا يزال حتى اليوم . وقد خيل الى ارسطو ان العقل عضو موجود في الانسان، وان التعقل لا يتم الا به . وشبّه عملية التعقل بالابصار ، فهذا الاحساس الذي يحتاج الى امور ثلاثة لكي يتم البصر ، هي المحسوس الخـــارجي ، ثم العين وهي عضو الحس ، ثم انتقال المحسوس الخارجي الى داخل النفس عن طريق عضو الحس؛ كذلك لا بد في التعقل من امور ثلاثة : هي المعقول الخارجي ، ثم العقل وهو اداة التعقل ، ثم العاقل وهو الانسان. غير انه يجب في فلسفـة ارسطو ان يشرق على العقل ضوء ينير المعقولات حتى تـُرى ، كما هي الحال في الاحساس البصري . ويقسم ارسطو العقل عقلين : فاعلا ومنفعلا ؛ فالمنفعل بالقوة ، والفعال عقل بالفعل . واذا كان العقل بالقوة — او المـادي — فاسدا ، فانيا ، فان العقل الفعال خالد ازلي . وقد استمرت هذه الافكار الارسطوطاليسيـــة الى عصر النهضة وبداية العصر الحديث . ثم احدث كانت ثورة في هذا التصور الارسطوطاليسي ، وبدلا من ان يجعل العقل متعاليا يستمد مبادئه من عالم آخر اسمى من عالمنا ، فقد انزل العقل من هذا العرش المتعالي ، وجعل مبادئه جزءا لا يتجزأ من نسيجه ، بحيث لا يمكن ان ندرك العالم الخارجي الا من خلال المقولات العقليـة . وهذا معنى الثورة الكانتية في الفلسفة ، اذ بعد ان كانت الاشياء الخارجية ثابتة والعقل البشري يدور حولهـــا يحاول معرفتها ، اصبح العقل هو المركز الذي تدور حوله الاشياء الخارجية . وفضلا عن ذلك فنحن لا يمكن ان نعرف حقيقة الاشياء الخارجية وانما نعرف فقط مظاهرهـا ، ونعرفها من خلال الزمان والمكان ، وكلاهما من نسيج عقولنا لا من طبيعة العالم الخارجي .

وقد اتجهت الدراسات الحديثة الى استبعاد اصطلاح العقل باعتبـــار انه شيء معين يشغل حيزا من المكان ويمكن ان يشار اليه فيقـال : هذا هو ، كما تشير الى العين مثلا او الاذن ، وان العين عضو الابصار والاذن عضو السمع . فاذا لم يكن الامر في العقل كذلك، اذاً ما العقل ؟

ان المباحث النفسانية الحديثة هي التي وضحت معنـاه ، والقت الضوء على « عملية » العقل . ان الانسان لا يولد مزودا بمفاهيم او مبادىء ، ولكن عقله ، ان جاز لنا استخدام هذا المصطلح ، اشبه باللوح الذي لم ينقش عليه شيء بعد ، كما قال القدماء ، او كالصفحة البيضاء . وقد نبه القرآن الكريم الى هذا المعنى في الآية التي جاء فيها : « والله خلقكم من بطون امهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون ».

بعبارة اخرى، العقل خلاصة التجارب التي يستفيدها المرء خلال حيـاته ، بعضها عن طريق الحس ، باعتبار ان الحواس هي النوافذ التي نطل منها على العالم الخارجي ، وبعضها الآخر عن طريق عمليـات تحدث داخل الذهن . وان هذه التجارب هي ثمرة التعامل مع

الاشياء ومع الناس ، وتتدخل فيها عوامل نفسية واجتماعية ومنطقية وفلسفية .

والذي اتصوره في امر العقل — نتيجة قراءاتي وتأملاتي وتجاربي الخاصة — ان العقل يمر في تكوينه بمراحل اربع : هي النطق ، والحكم ، والتعليل ، والتقويم .

اولا ، واعني بالنطق الالفاظ التي يتعلمها الطفل من اهله ومن المجتمع الذي يعيش فيه . والالفاظ اسماء تدل على مسميات ، ومنها اسماء اعلام مثل قولنا : شجرة ونافذة وباب وكتاب ، باعتبار انها اسماء يدل كل منها على مسمى يمكن الاشارة اليه . ومنها اسماء معانٍ مثل: الحرية والديمقراطية والعدالة وغير ذلك . ومن المعروف ان الطفل يبدأ باكتساب المعرفة بالمحسوسات والجزئيات ، فيتعلم اسماء الاعلام اولا ولا يدرك المعاني الكلية الا في وقت متأخر . وكلما اتسع قاموس الطفل او الصبي او الشاب او الرجل ، اتسع عقله . وكلما كانت الالفاظ التي يستخدمها « محددة » الدلالة على مسمياتها ، كان اصح نظرا واحكم عقلا .

والالفاظ — او بعبارة اخرى اللغة — ظاهرة اجتماعية . ولا يمكن لاي انسان لو انفرد بنفسه منذ الصغر ان يصل اليها ، لان اللفظ دلالة على شيء يعبر به المرء لكي يفهم عنه انسان آخر . فالالفاظ — او النطق — سبيل التفاهم بين الناس . وقد عثر على بشر تاهوا منذ ولادتهم او صغرهم في غابات حتى بلغوا مبلغ الصبي او الرجولة ، وعاشوا كما تعيش الحيوانات على ثمار الاشجار ، ثم درسهم علماء النفس والاجتماع فوجدوا انهم لا « ينطقون » ، واستطاع بعضهم ان يتعلم الكلام اليسير ، وعجز بعضهم الآخر تماما .

وقد اطلق القدماء لفظ الناطق ، والنطق ، على العملية العقلية كلها لا على التلفظ فقط ، فقولهم : الانسان حيوان ناطق ، يريدون به انه عاقل . وهذه وجهة نظر جديرة بالاعتبار ، لانه على الرغم من ان ثمة طرقا اخرى غير الالفاظ للدلالة على المعاني ، كالاشارات والرموز ، ولكن الانسان اساسا حيوان ناطق ، ولو فقد القدرة على النطق لفقد لذة الانسانية . ويكفي ان تتصور جماعة من الناس يعيشون معا ، ولا يتفاهمون فيما بينهم بالالفاظ بل بالاشارات ، لتتبين مقدار الشقاء الذي يحسونه ، والمشقة التي يعانونها. انها فكرة لا معقولة !

ثانيا ، واعني بالحكم ، المعنى المنطقي من الحكم ، اي اثبات شيء لشيء آخر او نفيه عنه ، وبالاصطلاح الفني في المنطق النسبة بين الموضوع والمحمول . وهذا شيء — منذ ان قرر كانت ذلك — من طبيعة العقل . فان نفكر هو ان نحكم . حتى الطفل الصغير الذي لا ينطق الا بلفظة واحدة انما يصدر احكاما ، فهو عندما يقول « بابا » حين يراه انما يعني : هذا بابا ، اي انه حكم على هذا الشيء انه بابا وليس شيئاً آخر.

والحكم ذهني ، يدور داخل العقل ، بازاء ما هو موجود في الخارج . فان اتفق

الحكم الذهني مع ما هو موجود في الخارج، كان الحكم صادقا ، وان اختلف كان كاذبا. والسبيل الى ضبط الاحكام ان نرجع الى مقاييس دقيقة ، واجهزة علمية ، فنتجنب بذلك احكام الهوى ، واوهام الخيال ، واخطاء الحواس .

ولكن الاحكام المباشرة ليست هي كل مكونات العقل ؛ انها اللبنات الاولى التي منها يتكون نسيج العقل . ولا يفترق الانسان عن الحيوان بهذه الاحكام، لان الحيوان — في اكبر الظن — يصدر مثل هذه الاحكام ، ما دام يميز الاشياء المختلفة فيقبل على بعضها وينفر عن بعضها الآخر . اما جوهر العقل بمعنى الكلمة ، والذي به يفترق الانسان عن الحيوان ، بل يفترق انسان عن انسان آخر ، فهو التعليل .

ثالثا ، واعني بالتعليل معرفة الاسباب والمسببات . ومعرفة السبب تتطلب الجواب عن هذا السؤال : « لماذا ؟ »

وانت اذا رجعت الى الطفل تراقبه ، وجدت انه دائم السؤال عن السبب . ويذهب علماء النفس الى ان هذا الفعل من الاطفال انما يرجع الى غريزة حب الاستطلاع ، وذلك عند القائلين بنظرية الغرائز . ويتكون العقل شيئا فشيئاً عند الطفل كلما اهتدى الى الاسباب الصحيحة عن الاشياء التي يستفسر عنها ، او بعبارة اخرى عن الاسباب « المعقولة » . ولذلك كانت طريقة التربية السليمة تعتمد على امرين اساسيين : الاول ، ان يفتح الآباء صدورهم لابنائهم يجيبون عن كل اسئلتهم ، دون ضيق او تبرم ؛ والثاني ، ان يجيبوا الاجابة العلمية — اي المعقولة — لا الاجابة القصصية الخرافية ، حتى ينشأ الطفل وقد تكون عقله تكوينا علميا معقولا بعيدا عن الخرافات وعن اللامعقولية .

من اجل ذلك كان العقل البشري ثمرة « الحوار » بين شخصين على الاقل ، او عدة اشخاص . انه الحوار الذي يدور بين الام وابنها وهي تخاطبه فيتعلم عنها ويخاطبها كما تخاطبه . فلا عجب ان تكون « الام مدرسة » كما قال شوقي ، وعليها ينهض عبء تكوين العقول السليمة .

وطريقة التعليم في المدرسة ينبغي ان تكون طريقة الحوار ، او بالاصطلاح الفني الطريقة السقراطية . ويجب الابتعاد بتاتا عن طريقة التلقين لانها لا تكوّن عقولا ، بل تخرج نسخا متكررة من الكتب تمشي على قدمين .

والعقل بهذا المعنى الذي نؤثره ، العقل الذي هو ثمرة الحوار ، عقل مفتوح تتمثل فيه وجهات النظر المختلفة ، او على الاقل وجهتان من النظر ، فلا يكون بذلك مغلقا على نفسه ، دغماطيا ، او تعسفيا . وفضلا عن ذلك يصبح العقل « اجتماعيا » ، ما دام يأخذ بآراء الآخرين .

لقد تم البحث عن الاسباب ، وبخاصة الظواهر الكبرى ، نتيجة تعاون عدد من المفكرين والعلماء في وقت واحد ، وعلى مر العصور . وهذا التعاون يضمن استمرار البحث من جهة ، والتصديق بصحة الاسباب من جهة اخرى . ولو اهتدى فرد بنفسه الى معرفة علة ظاهرة من الظواهر ، فما الذي يضمن ان رأيه هو الصواب ؟ انه يحتاج الى تأييد آراء غيره من العلماء . فلا جرم ان يكون الشخص في حاجة الى افراد المجتمع لتصحيح الرأي ، وتأييده .

ان معرفة اسباب الظواهر عملية قد تطول اجيالا واجيالا . وتاريخ العلوم يدلنا على ذلك ، لانها مرت في تاريخ طويل ،ولا يزال الطريق العلمي مفتوحا للمكتشفات الانسانية . نقول ذلك لاننا نحن الذين نعيش في القرن العشرين اصبح عبء المعرفة الملقى على عاتقنا ثقيلا عقب التقدم العظيم في الكشوف العلمية في عصر الذرة والفضاء . واطفال اليوم مطالبون بتحصيل معلومات كثيرة تستند الى اسباب علمية تقوم في صحتها على التجارب العلمية .

ومن اين يستمد الصبي او الشاب معارفه ؟ انه يستمدها من المجتمع الذي يعيش فيه . والفرق بين عقول البشر الذين يعيشون في المجتمعات المتقدمة والذين يعيشون في المجتمعات المتخلفة ، هو الفرق بين ما حصله واكتسبه وتعلمه الفريق الاول ، وما لم يستطع ان يتعلمه او يكتسبه الفريق الثاني نظرا لتخلف المجتمع .

فلا غرابة اذاً ان نقول ان العقل ، بمعنى الربط بين الاسباب والمسببات ، ظاهرة اجتماعية . وسيتبين اثر ذلك في المعقول واللامعقول . ولكن معرفة الاسباب والمسببات ليست مطلوبة لذاتها ، بل لشيء آخر هو تسخير الطبيعة لمصلحة الانسان . فكيف يكون ذلك ؟ انه التقويم ، المرحلة الاخيرة في العقل .

رابعا ، واعني بالتقويم اصدار حكم قيمة على امر من الامور ، أي الايثار والتفضيل .

والاحكام نوعان : حكم واقع ، وحكم قيمة . فقولنا : الشجرة مورقة ، حكم واقع ، اي ينطبق على الحقيقة الخارجية . ولكنك عندما تؤثر ان تزرع في حديقتك شجرة ورد ، ويؤثر غيرك ان يزرع شجرة برتقال ، فهذا حكم قيمة ، يعتمد على التفضيل.

والانسان بما هو انسان حياته في معظمها ، ان لم تكن كلها ، احكام تقويمية . واذا كان يصدر احكاما واقعة ، فانما هي سبيل الى الانتفاع بها في مصالحه . فهو يأخذ منها ما يروقه ، ويترك ما لا يريده .

والانسان يستخدم ما يصل اليه عقله من معرفة باسباب الاشياء وطبائعها في تسخير هذه الاشياء لصالحه ، وتغييرها لنفعه. فالمنافع والمصالح ، والخير والشر ، والجمال والقبح ، كل ذلك خاضع لاحكام الايثار والتفضيل ، او لاحكام القيمة ، التي تجعل الانسان يتجه

صوب هذا الطريق دون ذاك . قد يتجه بابحاث الذرة نحو الحرب او نحو السلام ، كما هو واقع تحت ابصارنا اليوم .

بقي ان نتحدث عن المعقول ما هو ، بعد ان عرفنا من العاقل ، وما المقصود بالعقل .

وقديما قيل ان المعقول هو الفكرة الكلية المجردة ، التي تقابل المحسوس بالنسبة للاحساس . فاذا كان المحسوس ماديا جزئيا ، فالمعقول مجرد كلي . وهذا هو مذهب ارسطو الذي اختلف الشراح في تفسيره ، هل للمعقولات وجود مستقل خارج الذهن، ام هي ذهنية ، وبذلك يكون العاقل والمعقول والعقل شيئاً واحدا .

ولكننا نعني بالمعقول شيئاً آخر .

المعقول ما يقبله العقل ، اي ما يراه صوابا وحقا ، لا خطأ وباطلا . وهذا يقتضي النظر في الامور ايها صواب وايها خطأ،وايها حق وايها باطل، مما يجرنا الى صميم الفلسفة .

ونود قبل ان نفصل فيهذه القضية العويصة ، ان نوضح بعض الامور المتصلة بالمعقول.

الاول ، ان المعقول قد يكون فكرة ، كما قد يكون فعلا وسلوكا .

والثاني ، ان الفكرة التي نقول عنها انها معقولة ليست منعزلة عن غيرها ، ولا هي مطلقة ، بل تؤخذ جزءا من السياق مع النظر الى ما ورد قبلها وما يجيء بعدها .

والثالث ، ان المعقول ادخل في باب السلوك منه في باب الفكر ، ما دام المقصود من الفكر ان ينتهي الى العمل ، كما ان الفصل بين النظر والعمل ميراث خاطىء اخذناه عن الفلسفة اليونانية ، ولكن الاتجاهات الحديثة في اغلبها لا تفصل هذا الفصل . ان الانسان يؤدي اعمالا يهتدي فيها بافكار ، وتدور في خلده افكار يرتبها ترتيبا معينا فتفضي به الى السير في طريق معين من السلوك .

ان السلوك هو المحك الصحيح لصواب الفكر . وسلوك الفرد انما يتم في مجتمع يتصل مع افراده بعلاقات شتى . ومن هنا كان السلوك القويم دليلا على صدق الفكرة ، اي انها معقولة .

ان المعقول او اللامعقول في هذه الحالة انما ينشأ من المجتمع ، ومن حكم المجتمع على الفكر او السلوك بالخطأ او الصواب . فلا غرابة ان نقول ان المعقول مصدره المجتمع .

والمعقول اصناف ثلاثة : معقولات رياضية، ومعقولات طبيعية ، ومعقولات انسانية، وذلك بحسب قسمة العلوم الى رياضية وطبيعية وانسانية .

ومن الواضح ان المعقولات من الصنف الثالث ، وهي الانسانية ، متصلة اوثق الصلة بالمجتمع ، والمرجع فيها الى حكم المجتمع . وليس هذا الحكم مطلقا ، ولا سائدا في كل المجتمعات في زمان واحد ، ولا جاريا على مر التاريخ .

والمعقولات الاجتماعية اصناف كذلك ، منها ما يتصل بالطعام والشراب والملبس وما الى ذلك من مظاهر المعاش الضرورية ، ومنها ما يتصل بآداب السلوك وطرائق الحديث والمجاملات والاحتفالات ومناسبات الزواج والطلاق والولادة والوفاة وغير ذلك ، ومنها ما يتصل بمظاهر الترفيه ، وعلى الجملة كل مايتصل بالحياة الاجتماعية. وهذه المظاهر ترجع الى العرف والتقاليد ، ولها جذور عميقة تنحدر مع التـــاريخ . والتوافق مع المعقولات الاجتماعية يؤدي الى تماسك المجتمع وترابطه ، والخروج عليها يفضي الى التفكك والانحلال. واذا وجب ان يخرج احد على المأثور ، وهو المعقول اجتماعيـــا ، لفساده ، فان الرواد الاول في التغيير الاجتماعي لا جرم يضحون بانفسهم في سبيل المجتمع . فاذا تحتم التغيير ، فلا بد ان يتم بموافقة المجموع .

ان المعقول هو ذلك الذي يوافق عليه المجتمع ، واللامعقول هو الذي ينفرد به شخص او قلة ، ولم يجر عليه العُرف .

والتفرد ضرب من الشذوذ ، او هو خروج على المألوف ، طلبا للشهرة . ولذلك قيل في الامثال : خالف تعرف . حقا ، التفرد جري وراء الحرية الشخصية ، ولكن التطرف فيهذه الحرية مدعاة اذا انتشرت بين جميع الناس الى انعدام التجانس في المجتمع. لا بد اذاً ان تتقيد الحرية الشخصية بمصلحة المجموع . فالمعقول في الامور الانســـانية حكم بالقيمة يصدره المجتمع .

اما المعقولات الطبيعية فانها تخضع في الحكم عليهـــا بالصواب او الخطأ الى التجارب العلمية . فما تثبت التجارب صحته كان معقولا ، ومـــا دلت التجارب على خطئه كان لا معقولا .

لسنا نريد الخوض في المعقولات العلمية من حيث هي كذلك ، ولكننـــا نود ان نلفت النظر الى ان المشاهدات والفروض والقوانين العلمية ليس لهـــا في ذاتها قيمة ، وانما قيمتها في اهتداء الانسان اليها ، ثم في استخدامه لها ، والا ظلت حبرا على ورق بعيدة عن مصلحة الانسان . والامر كذلك في الحقائق الرياضية ، فانها تكون معقولة بمقدار اتســـاقها مع التعاريف والبديهيات والمسلمات الرياضية . ومع ذلك فان الافكار الرياضية ولو انها حق في ذاتها الا ان قيمتها في استخدامها لمصلحة الانسان . وعندئذ تكون معقولة .

فالمعقول اذاً هو الشيء الذي يحقق مصلحة الانسان لا من جهة انه فرد بل من جهة انه عضو في جماعة . واللامعقول هو الذي يضاد مصلحة الفرد ، او يفسد مصلحة المجتمع .

ولما كانت مصلحة الفرد انما تتحقق بصلاح المجتمع الذي يعيش فيه ، فلا بد ان يسعى الفرد الى فعل الشيء المعقول حتى يحقق النفع لنفسه وللمجتمع .